الفصل الثاني

البواعث والنظرات

العوامل التي ساعدت على قيام الزهد

كل ظاهرة من الظواهر أيًا كان نوعها لابد لها من بواعث تثيرها ومن أسس تقوم عليها، وينطبق هذا على مجال الظواهر الاجتماعية والنفسية والروحية؛ ونظرًا لأن الإنسان لا يحيا بمعزل عن أحداث وتيارات الحياة بل هو كائن حي يتأثر بما يجري من حوله ويؤثر في الظروف التي تنشأ دائمًا، والتي قد تكون مادية أو فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية.

الكل متشابك وغير منفصل؛ لذا كان لزامًا علينا أن نراعي هذا كله ونحن نحاول أن نقف على الأسباب التي أثارت النفوس ووجهتها نحو نزعة الزهد دون أن نجمد عند سبب واحد كما فعل البعض.

وبالنظر في هذه الدواعي نجد أنها إما ثانوية وإما أصلية:

والثانوية: إما أن تتعلق بالبنيان الاجتماعي وحركته وما يعتريه، وإما أن تنشأ من الدواعي السياسية وتياراتها، وسنوجز الإشارة إلى كل ثم نختم بالسبب الجوهري الأصيل وهو المرتبط بالدعوة الدينية إلى الزهد.

أولا: العامل الاجتماعي

لا يمكن تجاهل الحركة الاجتماعية لمجتمع ما عند دراسة أية ظاهرة من ظواهره، وبالنسبة للزهد كظاهرة دينية لها أنصارها ودعاتها وأفكارها خضعت كغيرها من الظواهر لطبيعة وشكل المجتمع من ناحية، وللأحداث التي دارت على

obeikandi.com

واعتادت بطونهم ما جف من الطعام وأبدانهم ما خشن من الثياب منتصرين على أنفسهم بفضل قوة اليقين وثراء المبدأ الذي بذره الإسلام في أعماقهم، ولولاه ما صبر هؤلاء المترفون من قريش على ما لاقوا.

ومن أبرز الدلائل التي تشير إلى اعتياد المسلمين ما خشن وشظف أنهم لم يعودوا إلى النهم والشره؛ ليعوضوا ما فاتهم أيام الحصار كما هي عادة المحرومين من أبناء الدنيا، إنما رجعوا مستمسكين بحال الزهد والتقشف الذي مرنوا عليه أنفسهم زمن الحصار؛ ونضيف أنه مع كونه زهدًا مفروضًا وعدمًا -لا عن اختيار- إلا أن النفوس استمرأته وتعودته ووجدت فيه وفي كل ما تبعه من خلوة وعزلة حياة لها، وجلاء لصدئها.

ثم قضت الهجرة على كل ما وجد أو حصل في مكة، إذ خرجت أفواج المسلمين فارين بدينهم لا مال ولا دار، ثم وفدوا على الأوس والخزرج في المدينة، ولم تكن حالتهم من القوة الاقتصادية كما كان عليه جيرانهم من اليهود، علاوة على أن الحروب بين القبيلتين قد طحنتهم من سنين عدة، فإذا نزل عليهم هذا الحشد من المهاجرين؛ فلا شك أنه يترك أثرًا اقتصاديًا ملحوظًا على حال اليثربيين خصوصًا إذا ما علمنا أن المهاجرين كانوا من الكثرة؛ بحيث إنهم استوعبوا دور الأنصار.

وبنيت الصفة لمن لم يجد له النبي ﷺ منزلاً يقيم فيه، وكان من سكن ومن لم يسكن عبئًا على الاقتصاد اليثربي الهزيل، وكم نعجب مع هذا من سعة الصدر التي استقبل بها الأنصار المهاجرين! ومن تلك الحفاوة وهذا السخاء النفسي الذي عامل به أهل المدينة ضيوفهم هي الأولى من نوعها في التاريخ! نظرًا لكثرة عدد الضيوف في وقت واحد وجود المضيف،كما تعتبر مضرب الأمثال لدعاة الاشتراكية الحقيقية لا الزائفة الملحدة المعاصرة.

فلهذا البنيان الاجتماعي وللظروف الثلاثة المشار إليها برز حب التقلل وتجربة الزهد بروزًا خضع لظروف قسرية أكثر منها اختيارية، وكان في الغالب عامًّا شائعًا بين جميع المسلمين.

أما في الدور الثاني: الذي يبدأ من عصر عثمان بن عفان فقد تغير الهيكل الاجتماعي للمسلمين إذ دخل كثير من الأجناس والفئات في الإسلام، وانضمت مساحات شاسعة من الأرض الخضراء إلى الطبيعة الجدباء التي عليها الجزيرة العربية، وبسبب كثرة الغنائم والتوسع في التجارة وامتلاك الأراضي الزراعية تولد عند بعض النفوس حب الدنيا والإقبال عليها.

ولذا هب البعض الآخر لمقاومة هذه النـــزعة مستمسكًا بالزهد، وعلى رأس هؤلاء من الصحابة أبو ذر الغفاري وأبو الدرداء، ومن التابعين أويس القرني وأبو مسلم الخولاني، وكان هذا الاتجاه اختياريًّا بمثابة رد فعل من أصحاب النفوس القوية ضد المقبلين على الدنيا.

وأخيرًا فإنه يمكن أن يقال: إن الزهد الضروري في الدور الأول والاختياري في الثاني هما ثمرتان لعوامل اجتماعية صميمة دفعت المسلم الحساس دفعًا إليه، وكونت نماذج من الزهاد يقتدى بهم وبآرائهم على مر العصور.

ثانيا: العوامل السياسية

من القواعد المسلم بها أن الظروف السياسية التي يمر بها مجتمع ما لابد أن تنتشر آثارها بين الأفراد والجماعات، وأنها قوية الصلة بفكر المجتمع ككل، ومن هنا فإن الحوادث السياسية التي حدثت بين المسلمين بعد انتقال رسول اللـــه ﷺ ما كانت لتمر دون أن تترك بصماتها على الحياة الخاصة والعامة، فيوم الثقيفة الشهير، وعمليات الردة، ومنع الزكاة وحروبهما، وطيبة الخليفة الثالث، وتطلعات

أسرته إلى الحكم ونــزواتها فيه، وإثراء البعض والانفراد بالسلطة وكثرة المظالم، وما تبع ذلك من حصاره واستشهاده بريئًا.

وما أعقب ذلك من خروج طلحة والزبير ومعاوية على عليّ، وما ترتب على ذلك من حرب الجمل وصفين (٣٦-٣٨هـ) ثم النهروان بين علي والخوارج، ثم مقتل علي وتنازل الحسن واستيلاء الأمويين على الحكم، ثم مقتل الحسين (٦١هـ) وانتهاك المدينة في موقعة الحرة (٦٣هـ)، ثم صلب عبد اللـه بن الزبير وانتهاك الحرم المكي (٧٢هـ)، وشيوع الانقسام والتفرق وانتشار الفساد السياسي، كل ذلك ترك على المستوى الاجتماعي آثارًا سياسية وفكرية.

أما السياسية: فقد برزت الأحزاب كالشيعة والخوارج والعثمانية، كما نلحظ بزوغ الجدل الفكري حول المرتد ومرتكب الكبيرة وحدِّه، وحكم من سب الصحابي، وعن طريق التشيع دخلت الأفكار والنظريات البعيدة عن روح الإسلام، كما أدى تشدد الخوارج إلى بعدهم عن الجادة، وظهرت فرق المرجئة والقدرية الأولى والثانية، وتمزقت الوحدة الفكرية التي سادت المجتمع طوال عصر الرسول والخلفاء الثلاثة الأول[١]، وكان لهذا آثاره بين الأفراد.

(أ) فقد هالت تلك الفتن وهذه الانقسامات بعض النفوس فتشكك عبد اللـه بن الكواء وقيس بن عبادة اليشكري فاستخبروا عليًا الأمر واستفتوه في الفتنة فبين لهم وجهة نظره وأنه ما حارب إلا بعد البيعة ولو كان عمر حيًا لقاتل من ينقضها[٢]، ورحل فريق من أهل الشام إلى عبد اللـه بن عباس في مكة

---

(١) ابـن عبد ربه: العقد الفريد ج٢: ٢١٤: ٢١٠: ٢٢٢، والمسعودي في مروج الذهب هامش نفح الطيب ج١: ٥٧٣: ٥٦٤، والبيهقي في المحاسن والمساوئ ج١: ٣٥.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوئ ج١: ٣٦.

بعد اعتزالــه أيام علي يستجليه الموقف[1].

وأمام هول الحداث ندمت السيدة عائشة فقالت: وددت أني لم أخرج[2]، وفي لذعة الضمير ساعة ردد عمرو بن العاص أمام ابنه عبد اللــه وددت أن بيني وبين موقفي بُعد المشرقين[3].

(ب) وروعت تلك الأحداث نفوس بعض الصحابة فزهدوا واعتزلوا على غرار ما فعل أبو الدرداء عويمر بن زيد (٣٢هـ) الذي ابتدأ العزلة مبكرًا وقال: نعم صومعة المؤمن منــزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه[4].

وحذا حذوه سعد بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وعبد اللــه بن عمر، ومحمد بن سلمة بن ثابت، وعبد اللــه بن سلام، وقصدوا مكة يجاورون فيها نائين بأنفسهم عن الفتن وغرور الدنيا ولسان حالهم ما يرويه سعد بن أبي وقاص أن رسول اللــه ﷺ أمرني إذا اختلف الناس أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض الجدار فإذا انقطع أتيت منــزلي فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية أو منية قاضية[5]، ولزم جماعة من أهل بدر بيوتهم واتخذوها منازل للآخرة فلم يخرجوا منها إلا إلى قبورهم.

(جـ) وسلك التابعون وتابعو التابعين نفس المسلك في الزهد والعزلة سلامة من الصراع وبعدًا عن الفتن، فنرى رجلاً من بني ضبة يقود جمل عائشة في الغزوة المسماة بهذا الاسم ويسمعها تقول عن الإمام علي: ما أشبهه بأخيه،

---

(١) نفسه.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ج١: ٣٩.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ج٣: ٣٦.
(٥) الصلة بين التصوف والتشيع: ٢٤٨-٢٤٩.

فيرد: فلا أراني أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله[1] ونبذ خطام الناقة وولى، وسأل الأحنف بن قيس يومها السيدة عائشة: هل عهد إليك رسول اللـه بهذا أو تجدينه في كتاب الله؟ فقالت: لا، قال: فإذًا ما هو ذنبنا؟.

ورأى هذا الأحنف الحسن البصري متوشحًا سلاحه؛ ليقاتل في صف السيدة عائشة فرده قائلاً: ما قاتلت مع رسول اللـه المشركين فكيف تقاتل معها المؤمنين، قال الحسن: فرجعت إلى منـزلي ووضعت سيفي[2]، وتشدد الربيع بن خيثم (٦٧هـ) في زهده واعتزالـه وفي عبادته وطاعته[3]، وانقطع بسر بن سعيد(٧٨هـ) ومات لم يترك كفنًا[4].

وتتلمذ سالم (١٠٦هـ) على أبيه عبد اللـه بن عمر وأبى أن يقتل مسلمًا صلى الصبح كما رفض تهديد الحجاج[5]، وعلَّم مكحول الدمشقي (١١٣هـ) تلميذه الأوزاعي درسًا في العزلة فقال له: إن كان في الجماعة فضيلة فإن في العزلة السلامة[6].

وتورع أحمد بن هارون الرشيد (١٨٤هـ) أن يأكل من سعة أبيه واشتغل يوم السبت من كل أسبوع؛ ليأكل من عمل يده؛ ولذا سمي بالسبتي هذا مع ما لأبيه من جاه وسلطان، إلى غير هؤلاء من الزهاد الذين آثروا الزهد والعزلة كرد فعل لما جَدّ في المجتمع من فساد وشرور، وحب الدنيا وصراع على السلطة

(١) المحاسن والمساوئ ج١: ٣٥-٣٦.
(٢) نفسه.
(٣) البيان والتبيين ج٣:
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٥: ٢٠٨.
(٥) نفسه ج٥: ١٤٥.
(٦) البيان والتبيين ج٣: ١٠١.

obeikandi.com

وحجتهم في ذلك ما جاء على لسان مكحول من إيثار السلامة بعد تحصيل فضيلة الجماعة، ولنا مع الزهد والعزلة الناشئين عن الأحداث السياسية مواقف ونظرات نفصلها على الوجه الآتي:

وقفات عند الآثار السياسية

أولا: لا أحب أن يفهم القارئ أن جميع الزهاد قد اعتزلوا، وأن رد الفعل جمع دائمًا -ولدي كل زاهد- بين التقلل والاعتزال، وإنما كان هذا هو الغالب فقط، وقد بقيت جماعة منهم فرقوا بين الزهد والعزلة فزهدوا وخالطوا، وبلغ من مخالطة البعض أن رمى بنفسه في صفوف المتحاربين من المسلمين سواء في جبهة علي أو معاوية، أو الأمويين وأعدائهم، كمحمد بن طلحة الذي راح يوم الجمل بين مَنْ قُتل من أنصار طلحة والزبير، وكان ذا زهد ويدعى بالسَّجَّاد لكثرة عبادته[(١)].

وأيضًا قاتل عبد اللـــه بن الزبير مع زهده وعبادته مع والده وكاد أن يقتل لولا شفاعة عائشة عند علي، كما انضم محمد ابن الحنفية إلى والده ثم اعتزل بعد ذلك[(٢)]، ولم يكف الخوارج عن القتال مع ما اشتهر عنهم من الزهد والتشدد في العبادة.

واقتصر بعض الزهاد في المخالطة على ما ينفع منها، ورفضوا الخوض في الصحابة والاشتراك الفعلي في الفتن كعبد اللـــه بن جعفر بن أبي طالب الذي سار بين الناس ضابطًا لسانه ونفسه يتخلص من المواقف الحرجة بصدق الحديث وحسن المخرج.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج١ : ٥٦٩

(٢) نفسه.

من ذلك أن يحيى بن الحكم ابن عم عبد الملك بن مروان سأله عن علي وعثمان فقال: أقول ما قاله من هو خير مني فيمن هو شر منهما[1] ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨].

وجلس جماعة من أهل العلم فأكثروا القول في علي وعثمان وطلحة والزبير وعمر بن عبد العزيز بينهم فقالوا: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أقول شيئًا تلك دماء طهَّر الله منها كفي فلا أغمس فيها لساني[2]، وكذلك كان سليمان بن مهران الأعمش (١٤٨هـ).

ثانيًا: وإذا قلنا: إن الزهد وحده أو هو مع العزلة كان رد فعل لأسباب سياسية لدى كثير من الزهاد فإننا نؤكد على ملاحظتين:

أولاهما: أن رد الفعل كان أقل في عصر الصحابة عن عصر التابعين في جانب العزلة فقط، أي إن زهاد الصحابة كانوا أكثر من عصر التابعين؛ ولكن معتزلي الصحابة كانوا أقل من معتزلي العصور التالية، ومرجع ذلك إلى شيوع الفساد في عصر ما بعد الصحابة مما جعل أرباب النفوس الوجلة تفر إلى العزلة سلامة، على عكس الدقة والاستقامة التي كان عليها المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين.

والملاحظة الثانية: هي أننا لا نتصور عقلاً أن رد الفعل نشأ بلا إرادة من الزهاد كما يقول قاسم غني[3]؛ لأن الزهد والاعتزال أو الزهد فحسب تمَّ من عبد الله بن عمرو، وممن ذكرنا من الصحابة، ومن عمر بن عبد العزيز، وأحمد بن هارون الرشيد، وغيرهم من التابعين وتابعيهم بمحض الاختيار والإرادة.

---

(١) البيهقي المحاسن والمساوئ ج١: ٣٤.

(٢) البيهقي المحاسن والمساوئ ج١: ٣٤.

(٣) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ٣٨-٣٩.

ثم إنه كذلك ليس ناشئًا من قصور الزاهدين عن تحصيل مآربهم، أو عجزهم وفشلهم في الحياة؛ أو لأنهم لم يجدوا سبيلاً إلى الثراء؛ أو لأن لهم مزاجًا خاصًّا يكره الدنيا ونعيمها؛ لأنه كان بوسع سعد بنِ أبي وقاص وهو القائد المغوار أن يحتفظ بثروته وأن ينميها، وكان من الجائز أن يمتلك عبد اللــه بن عمرو في مصر أرضًا وتجارة وهو ابن أقوى الأمراء شخصية وشكيمة في العصر الأموي.

وأيضًا من الذي أجبر عمر بن عبد العزيز على توزيع ثروته والبقاء مع الفقر؟ وما الذي دفع ابن هارون الرشيد إلى مسلكه في الزهد والعمل اليدوي؟ وجعل داود الطائي وإبراهيم بن أدهم يسيحان في الأرض زهادًا والحال أن أبويهما كانا ثريين؟ على أن بقية الزهاد كانوا يستطيعون جمع ثروة هائلة من جُعل التأديب لأولاد الأغنياء؛ ولكن الجميع بلا أدنى شك آثروا الآخرة على الأولى بمحض الاختيار ومع القوة النفسية التي امتاز بها الزهاد خلافًا لما يقولــه أحمد أمين[١].

وهُم من هذا الجانب أفضل النوع البشري لا من حيث العلاقة الإلهية التي لا شك في علو قدرها فحسب بل من حيث كون نفوسهم سوية لا شذوذ فيها ولا تعقيد؛ لأن النفس البشرية تتطلع بحكم طبيعتها إلى تنفيس غرائزها، والزهاد جعلوا أساليب التنفيس رفيعة سامية متوجهة إلى اللــه طاعة وعبادة وخوفًا وحبًّا، وانصرفت النفس؛ لتشبع رغباتها في مواطن رحبة تسع كل طالب ولا يزاحم فيها فردٌ فردًا، فنالت النفس من جود الحق ما أغناها وأثراها بالرضا واليقين ولو مع القلة والكفاف، ومن هنا هدأت سورتها وانحلت العقد وانمحى القلق، بينما طلاب الدنيا فكوا غرائزهم من عقالها وأطلقوها من مكامنها، ووجهوها إلى الدنيا ومتعها، وكثرت الرغبات المتطلعة إلى زخرفها.

والمعروف أن الإنسان في تحقيق الآمال والرغبات الدنيوية يتعامل مع أسباب

---

(١) ظهر الإسلام ج٢: ٥٧.

لا تعطي بسهولة، ومع بشر آخرين لهم نفس الرغبات؛ ولذا قد تتحقق بعض الغايات للفرد ولا يتحقق البعض الآخر؛ فيحدث القلق والاضطراب المولدان للعقد والسقوط، هذا فضلاً عن أثر الإخفاق حينما يفشل الإنسان كلية في تحقيق ما يصبو إليه.

ثالثا: وثمة نقطة غاية في الأهمية نلحظها على طبيعة العزلة التي اتخذت البيوت أو المجاورة في مكة، أو المساجد عامة، أو المقابر مكانًا للبعد عما يجري في المجتمع هي أن تلك العزلة المضافة إلى الزهد، أو هذا الزهد المشبع بالعزلة لم يكن تعطيلاً للتعليم، أو بعدًا عن ثمار العلم، كما أنه لم يحجز الزاهد عن إقامة الفرائض في الجماعة، وحضور الجمعة.

وها هو سعيد بن المسيب مع زهده ما تخلف عن الصف الأول أربعين عامًا، وكان شريح وعطاء من العلم والعبادة بمكانة لا يشك فيها شاكّ، كما أن داود الطائي ما اعتزل؛ حتى حصل العلم ودرس الفقه(١)، وبهذا يكون ابن الجوزي قد جانبه الصواب في تعميم النقد لمسلك الزهاد في العزلة(٢)، وكان عليه أن يصب نقده على المدعين أو المرائين لا الصادقين المخلصين خاصة وأنه لم يذكر شاهدًا واحدًا على صحة ما يقول من واقع حياة الزهاد المعتزلين، بل على العكس نراه يمتدح كثيرًا من الزهاد الذين سلكوا العزلة كالطائي وابن أدهم، فكأن نقده أقرب إلى تصحيح وبيان ما ينبغي أن تكون عليه العزلة منه إلى نقد عزلة الزهاد المستوفية للشروط.

رابعًا: وكما أن الزهد مع العزلة ليس تعطيلاً للشعائر وإنما هو بعد عن الشرور والفتن فحسب فإنه كذلك يمثل التيار السني الذي يتصدى للبدع

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٢: ٢٩. ج٧:٣. وابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢: ١١١.

(٢) ابن الجوزي: تلبيس إبليس: ١٥٦-١٥٧

obeikandi.com

والمفاسد الفكرية والاجتماعية، ولقد ظلت حركة الزهد كذلك كما يبدو في كل موقف من المواقف طوال القرنين الأولين إلى أن حاولت الحركة الحنبلية السلفية انتزاع الريادة السنية من الرحاب الروحي وإسنادها إلى منهجها مستغلة بعض الأفكار التي أدخلت في المجال الصوفي في القرنين الثالث والرابع للتشنيع على الحياة الروحية ووصمها بالخروج.

وبما أن حركة الزهد تحملت عبء الدفاع عن السنة والأثر بدون تفرقة بينها وبين العلماء الظاهريين فإنها لم تكن كذلك حركة سلبية إزاء ما يجري في المجتمع، وإنما كانت إيجابية على وجه جريء وقوي سواء بالنظر إلى جهاد المتصفين بها، أما بالنظر إلى ذاتها فإن حبيبًا العدوي الزاهد المشهور بيَّن أنها حرز للدين، والشيء الذي يقي من الفتن ويحفظ النفس من الآفات لا يجوز لعاقل أن يصفه بالسلبية، بل هو عين الإيجاب، إذ اتباع الحق، ومجاهدة النفس، والبعد بها عن المزالق والمهاوي، وإلزامها الفضائل وتدريبها عليها مسلك يوصف بالجدية والإيجابية.

وعلى العكس من ذلك فإن إهمالها وتركها لدنايا الأمور هو ضعف وفقدان للمقاومة وخضوع للشهوات وانقياد للمطامع وهو عين السلبية، وبالتالي: فعملية اعتزال الرذائل والمفاسد للتحقق بالفضائل عملية مجاهدة ونصرة لجانب الخير في الإنسان؛ ولذا أمر اللـــه نبيه أن يذر الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[الأنعام: ٧٠] وأن يعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[النجم: ٢٩].

وبالنظر إلى جهاد المتصفين بها، وعلاقتهم بالمجتمع فإن ابن عبد ربه، وابن قتيبة الدينوري ساقا لنا كثيرًا من الرسائل الحارة التي وعظ بها الزهاد أنفسهم، أو نصحوا بها الرعية، أو وجهوها مباشرة للخلفاء والأمراء، ومن يقرأ هذه الرسائل

يجدها تدور على وجه العموم حول نشدان الحق واجتناب الباطل واتباع الشرع، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب، والتبشير بالثواب والنعيم وعلى هذا دارت رسائل الزهاد بعضهم لبعض وتوجيهاتهم.

وأقدم صورة لتلك ما نجده عند عمر حين نصح جمهور المسلمين فقال: تمعددوا واخشوشنوا، واقطعوا الركب وانــزوا على الخيل نــزوًا[1]، وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء يعظه بأنه لن ينال ما يريد إلا بترك ما يشتهي والصبر على ما يكره، وحثه على الذكر والفكر والنظر والصمت وأن يكون بيته المسجد[2].

وكان الحسن يراسل عمر بن عبد العزيز، وعمر يراسل رجاء بن حيوة (١١٢هـ) ويتحاضون على تذكر الموت وقلة الكلام، ولم يقتصر وعظهم على أنفسهم وإنما تعداه إلى كل من يستحقه أو يستوجبه من المسلمين، وأبرز الرسائل جرأة في الحق، وفهما للأحداث من حولهم هو ما ظهر في مواعظهم التي أرسلوها للخلفاء، وكيف أنها أثرت فيهم واستجابوا لمضمونها، وكان كاتبوها موضع احترام وتقدير من الخلفاء، كما قدموا نصائح شفوية قرعت آذان وقلوب الحاكمين.

ومن ذلك أنه حينما حج سليمان بن عبد الملك (٩٩هـ) وقدم المدينة بعث إلى أبي حازم الأعرج (١٤٢هـ) فلما قدم طلب منه الخليفة أن يتكلم في المخرج من هذا الأمر فقال الزاهد أبو حازم: يسير إن أنت فعلته، قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حلها، ولا تضعها إلا في أهلها، قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال الزاهد: من قلده اللــه أمر الرعية ما قلدك، ووعظه بالتدبر في تقلب الدنيا.

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج٣: ١٢.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١: ٣٠٣.

فلننظر كيف قدم أبو حازم حلولاً للمصاعب بسيطة في عبارات سهلة وجيزة؟، وكيف أن الخليفة أصغى إليها في نهم ورضا وطيب نفس؟ وشبيه بها تمامًا ما وعظ به عمرو بن عبيد (١٤٤هـ) أبا جعفر المنصور (١٥٨هـ).

كما نصح عبد الرحمن الأوزاعي (١٥٧هـ)، وسفيان الثوري (١٦١هـ) المنصور أيضًا بالعمل، والقيام بأعباء الأمانة التي نيطت به؛ لأنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة، واجتناب الغش للرعية حتى قال الأوزاعي فيما قال: حقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا، وبالحق فيهم قائمًا، فلا يتخوف محسنهم رهقًا ولا مسيئهم عدوانًا وكل ما يملك لا يعدل شربة من شراب الجنة أو ثمرة من ثمارها، وركز سفيان في نصيحته على العمل.

ولعل أبلغ نصيحة قدمت للمنصور هي ما ساقها عابد في الحرم على سمع الخليفة، وقد اتسمت بالطابع السياسي البحت؛ حيث اهتمت بعلاقة الحاكم بالمحكومين، وضرر غلق أبوابه دونهم، والإسراف في الأموال، واستغلال الحاشية، واستئثارهم بالسلطة، ومصارحته للخليفة أن ذلك تم في قصره؛ حتى ضاعت الحقوق، ولم يجد المظلوم نصيرًا عنده، كما يجد عند ملك المشركين في الصين.

وأيضًا لفت ابن السمَّاك (١٨٣هـ) نظر هارون الرشيد إلى الدقة في تطبيق القرآن فإنه نعم الواعظ[١]، وهذا كله يعني أن الزهاد لم يغيبوا عن مجتمعهم، ولم يغفلوا عما يدور فيه، وإنما عايشوه وأحسوا به ووصفوه وصفًا دقيقًا ينم عن وعي وتقدير وجرأة في الحق، ويدل دلالة أكيدة على أن زهدهم وعزلتهم لم تكن سلبية إلا عن الشر أو المشاركة في الفساد، أو المساهمة في الفتن.

وهذا المسلك هو ما يتفق مع ما جاء عن الرسول ﷺ في باب الفتن إذ بَيَّنَ أن

---

(١) انظر عيون الأخبار ج٢: كتاب الزهد، والعقد الفريد ج١: ٣٠٥-٣٠٦.

شرًّا للعرب قد اقترب، وأن الفتن توشك أن تقع على البيوت كوقع القطر، وأيقظ صواحب الحجر؛ لكي يصلين قبل أن يلاقين هذا اليوم، وأفصح عن اتساعها؛ حتى يقتتل من كل مائة تسعة وتسعون رجلاً، والضحايا كثيرون والناجون قلة.

كما ألمح الرسول إلى مكان الفتن وبعض رجالها وطوائفها وعلاماتها، وأمر المسلم أن يلزم جماعة المسلمين ولا يفارق السلطان قيد شبر وإلا مات ميتة جاهلية، وكل من نقض البيعة فهو غادر ولـه لواء مع الغادرين يوم القيامة.

وكذلك لا يصح لمسلم أن يشهر سيفًا في وجه مسلم، أو وجه الحاكم إلا أن تروا كفرًا بواحًا، ومن أراد أن يعتزل ساعة الهرج فيؤذن لـه كما أذن الرسول ﷺ إلى سلمة بن الأكوع، وأيضًا شجع الرسول على العبادة في أوقات الفتن وبيَّن أنها تعدل هجرة إلى رسول اللـه ﷺ[1] وبذا يتأكد صحة ما كان عليه الزهاد من تقلل وعزلة وبعد عن الفتن.

ثالثا: العامل الديني

تحدثنا عن العامل الاجتماعي والسياسي وبينَّا أنها عوامل ثانوية ما كان لها أن تؤدي دورًا رئيسًا أو أن تحدث في النفس استجابة للزهد لولا الإذن الصريح والدعوة الجادة لهذه الفضيلة من الكتاب والسنة.

وإذا علمنا بجانب هذا أن نشأة الزهد نمت في عصر كانت السيادة الكاملة فيه لحكم الإسلام ومبادئه، وأن جميع الأسباب والبواعث والآثار والظواهر لا تصح؛ حتى تعرض على مصادر هذا الدين وتجيزها، وأنه حمل بين ثناياه مبادئ

(١) البخاري ج٣: كتاب الفتن، ومسلم ج٤: باب الفتن، وفتح المبدي ج٣: ٣٦١، والقرطبي: ٢٨٢٧.

التزهيد الواضحة أدركنا أن العامل الديني هو الحاسم والأصيل وما سواه من عوامل تبع وخاضع له.

وبتتبعنا لآيات القرآن نجد أن لفظة الدنيا قد سيقت بينها في مائة وخمسة عشر موضعًا تناولت التمييز والتفريق بين طلاب الدنيا وطلاب الآخرة (١٥٢ آل عمران، ٦٧ الأنفال) وأعلت من شأن الراغبين في الباقية وبينت أهم أهل اصطفاء (في ٢٣ آية) مثل الآية (١٣٠، ٢٠١البقرة، ١٤٨ آل عمران، ٧٤ النساء، ٦٤ يونس).

بينما أكثرت من النهي عن السير في غرور الدنيا والتمتع بزينتها؛ لأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر ومتاع وعرض، ومن وقع تحت تأثيرها فهو مذموم لإيثاره الفانية على الباقية (٣٣ لقمان، ٣٥ فاطر، ٨٦ البقرة، ١٣٠ الأنعام، ٧، ٨ يونس، ١٠٤ الكهف، ١٤ آل عمران، ٧٧ النساء، ٣٢ الأنعام، ٣٨ التوبة، ٢٣ يونس، ٦٤ العنكبوت، ٧ الروم، ٣٩ غافر).

ومن الأسرار العجيبة أن تذكر لفظة الآخرة بنفس العدد الذي كررت به كلمة الدنيا في مائة وخمس عشرة آية، تنفرد عن الدنيا في ستة وخمسين موضعًا وتشترك مع الدنيا في الباقي، وكلها تبين فضل الآخرة ونعيمها وتسمو به للمؤمنين فوق الدنيا وما فيها (١٦٩ الأعراف، ٣٢ الأنعام، ١٠٩ يوسف، ٣٠النحل).

وكان الرسول ﷺ في مسكنه المبني باللَّبِن، وفي فراشه المكون من الحصير والليف، وفي ملبسه المرقع، وفي طعامه وشرابه الذي لم يجمع فيه صنفين، ولم يشبع من الأسودين التمر والماء، وتمضي الأيام ولا يشعل في بيته نار، وما شبع ثلاثًا من طعام بر أو خبز شعير حتى انتقل وليس عند السيدة عائشة من شيء يأكله ذو كبد إلاَّ شطر شعير في رف عندها، وما ترك إلا سلاحه وبغلته البيضاء وأرضًا تركها صدقة.

وحينما رثّ عمر لحالــه فقال: يا رسول اللــه إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال الحبيب:«**أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولك الآخرة**»

ولما طلب عمر أن يدعو الرسول بالتوسعة قال: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباقم في الحياة الدنيا**»[١].

كل هذه الآيات القرآنية، والمسلك العملي، والدعوة النظرية التي نادى بها الرسول ﷺ مع ما كان عليه من الخوف والحب والشوق جذبت قلوب ونفوس الصحابة إلى الزهد والتقلل، ودفعتهم إلى إيثار الآخرة فباعوا نفوسهم للــه واشتروا الجنة والرضا، واستهونوا ما شق من الطاعات ما دام يقربهم إلى الغاية خطوة، أو يرفع بينهم وبين اللــه حجابًا.

وبدا من سلوك أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي ذر وأبي الدرداء وطلحة والزبير وغيرهم أن جميع الصحابة انتظمتهم نــزعة الزهد متأثرين في ذلك بدعوة القرآن والسنة، كما تملكهم الخوف والرجاء، وذاق الكثيرون منهم رقيق الحب كعلي ومصعب.

وورث الزهاد من التابعين وتابعي التابعين هذه النــزعة من فهمهم للمصدرين واقتدائهم بسلفهم من الصحابة[٢]، وإذًا فإن العامل الديني: هو الباعث الأصيل على توجيههم هذه الوجهة دون سواه.

---

(١) مسلم ج٣: ٦٨٤-٦٨٨، ج٥: ١٩-٣٢، ٨٢٦-٨٣٠.

(٢) انظــر ما ورد عن الصحابة وزهدهم في طبقات الشعراني ج١: ١٥، ١٦، ١٧ وصفة الصفوة ج١: ٩٤، ١٠٨، ١٠٩، ١٧، ١٢١.

نظرات في تأثير العامل الديني

واضح من القدر اليسير الذي اقتصرنا عليه خشية الإطالة أن القرآن والسنة هما المنبعان الصافيان لفضيلة الزهد، وأنها قامت في البداية بدافع ديني أصالة، ويتعلق بهذا الإيجاز بعض الجوانب التي يتحتم علينا النظر إليها بعين التدقيق والتمحيص قبل أن نجتازها إلى غيرها، ونلخص هذه المواقف في فقرات محددة.

(أ) كان للآيات والأحاديث التي أظهرت الدنيا على أنها عرض ولهو وجيفة ولا تزن عند اللـــه جناح بعوضة أعظم الأثر في نفوس الزهاد الذين راحوا يصورونها على أنها غرور ومتقلبة، ويجب الانتصار عليها؛ حتى لا تكون سببًا للخسران في الآخرة، وأخذوا يشبهونها بتشبيهات منفرة ليأنف منها طلابها، وليتعظ بالمثل الحسي راغبوها.

فهي عند الإمام علي جيفة، ومن أرادها فليصبر على مزاحمة الطلاب[١] أي المقبلون عليها، وعند الزهاد عجوز شمطاء[٢] أو حلم يرى النائم فيه ما يحب ويكره فإذا استيقظ انتبه فلم يجد شيئًا، أو ظل لا حقيقة لـــه وهو في تقلص وانقباض، وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، أو هي مزرعة والعمل فيها بذر والحصاد يوم المعاد، أو كالحية تبدو ناعمة الملمس؛ لكنها قبيحة سامة ضارية وضربتها الموت، وتشبه الطعام الحلو الطعم؛ ولكنه مسموم فمن أكثر منه أودى بحياته، أو كالشارب من ماء البحر كلما أكثر ازداد عطشًا[٣]، وهي سفر زاده التقوى لمن عاين ثواب اللـــه ولم يغره الأمل كما قال عمر بن

---

(١) قوت القلوب ج١: ٢٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) عدة الصابرين لابن الجوزي ١٩٥-١٩٦ ، ٣١٦ نقلاً عن التصوف الإسلامي لزكي مبارك ج١: ١٢٩-١٣٠

عبد العزيز[1] (١٠١هـ).

ووعظ يوسف بن أسباط قرناءه فقال: أنـزل الدنيا منـزلة الميتة[2]، وهي أهون من التراب في نظر الحسن البصري[3].

ولو صنفنا هذه التشبيهات لوجدناها ترجع إلى محسوسات نقلها الزهاد من النبات والحيوان والطبيعة والجمادات والإنسان، والغاية من وراء التعبير عن الأمر المعنوي بمحسوس هي المبالغة في الزجر والتهوين خاصة إذا ما كان المحسوس تافهًا حقيرًا، أو تشمئز منه النفوس، أو تنفر أو ترهبه وتخافه، وسندهم في ضرب الأمثلة هو ما جاء في القرآن من كون الدنيا لعبًا ولهوًا، ومن تشبيهها بالنبات والزرع، وتشبيه النبي لها بالمزبلة وجناح البعوضة.

وبالتالي فنظرة الزهاد إلى الدنيا تهوينًا وزهدًا تستند في جملتها على الكتاب والسنة؛ حتى في وسيلة التعبير الحسية، على عكس ما يقولـه الدكتور زكي مبارك الذي أرجع التشبيهات النباتية إلى القرآن، أما الأمثلة البشرية فترجع إلى ما ساقه السيد المسيح لكونه كان عزبًا.

ومعنى زعمه أن عامل الحرمان في الجزيرة العربية وطبيعة الجفاف والفقر وحياة العزوبية التي عاشها سيدنا عيسى هي التي أوحت إلى الزهاد وإلى هذا النبي تلك التشبيهات، ويلمز إلى أن الدافع وراء التغني بالزهد والتقلل هو تعويض الحرمان الذي عاناه العرب والسيد المسيح؛ لأنه فضيلة لإصلاح النفس وتهذيبها.

وهذا الزعم رغم ما فيه من وخز لنبي من الأنبياء، وصفوة من الصحابة

(١) عيون الأخبار ج٢: ٣٠٩ ومحاضرة الأبرار ج١: ٧٧.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٢: ٣٦.
(٣) الإحياء ج٢: ٢٠٤

والزهاد فهو منقوض بما ورد على لسان رسول اللـــه حيثما أشرنا آنفًا وبما جاء في الكتاب العزيز، كما أن صاحبه قد تناقض مع نفسه إذ صرح بأن الزهاد أكثروا من الأخيلة الأدبية في وصف الدنيا وهم في هذا مسبوقون بالقرآن والحديث[١].

وبذا يكون قد أقرَّ الحقيقة التي حاول أولاً نقضها، تلكم الحقيقة الناطقة بأن استهجان الزهاد للدنيا في نـــزعتهم ولغتهم مستند إلى المصدرين الأساسيين.

(ب) ومع اتفاق الزهاد من الصحابة والتابعين وتابعيهم على أن الزهد فضيلة وحفظ للنفس إلا أنهم اختلفوا في وجهة النظر حول الزهد مع التجرد أو الملكية، فقال قوم: نـــزهد فيما نملك وقال آخرون نـــزهد فلا نملك ويرى أنصار الزهد مع الملكية أن وجود المال في يد الزاهد لا يخرجه عن التحقق بتلك الفضيلة؛ طالما أنه لا يغتر بما تحت يده ولا يكتنـــزه ويؤدي حق اللـــه فيه.

ولذا يقول حذيفة: ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة، ولكن خيركم الذين يتناولون من كل منهما[٢]، ويقول الإمام علي: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه اللـــه فهو زاهد، ولو ترك الجميع و لم يرد به وجه اللـــه فليس بزاهد[٣].

فالمدار في الملك والتجرد على التوجه إلى الله، فإذا حسنت النية وأحكم التصرف في المال فلا ضير في هذا المسلك؛ ولذا كان طلحة يملك كل يوم ألفًا

(١) زكي مبارك: التصوف الإسلامي ج١: ١٢٨.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١: ٢٢.
(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار: باب الزهد.

ويتصدق بها ويقول: إن رجلاً يبيت عنده الدنانير في بيته لا يدري ما يطرقه من الله تعالى لغرير بالله[1]، ثم يتخلص من المال منفقًا إياه مع الحاجة إلى قميص[2] يذهب به إلى المسجد، كما مات الزبير الذي ملك ألف مملوك يؤدون الخراج عنه وعليه دين لشدة سخائه وجوده وإنفاقه، وهو الاتجاه الذي سار فيه زيد بن ثابت، والمقداد، ويعلو بن أمية، عبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من الصحابة ممن كانوا على خشونة في العيش والثوب والأكل ومكاسبهم مع هذا ما كانت لأحد من أهل العالم كما يحدث عنهم المسعودي وابن خلدون[3].

وأخذ بهذه النظرة جمع من زهاد التابعين وتابعيهم أمثال أبي حازم الأعرج (١٤٢هـ) وأبي حنيفة النعمان بن ثابت (١٥٠هـ) وسفيان الثوري (١٦١ هـ) وعبد الله بن المبارك (١٨١هـ) وابن شبرمة وأيدها أبو طالب المكي والغزالي فيما بعد[4].

والحق أن الزهد مع الملكية الفعلية أو القدرة على الامتلاك لوجود الأسباب هو الزهد الحقيقي المتفق مع المعنى اللغوي من جهة. ولأن الزهد في معدوم باطل من جهة ثانية؛ ولأنه يصون وجه السالك عن السؤال ثالثا حسبما صرح عبد الله بن المبارك؛ ولأن المال سلاح المؤمن خاصة في أزمة الشح والبخل كما هو عند سفيان الثوري من جهة رابعة.

والمال بلا شك تحتاجه الأمة في كل شئونها ويحتاجه المجتمع في أوجه النفع

---

(١) صفة الصفوة: ج١: ٢٥٢

(٢) نفسه.

(٣) انظر مروج الذهب والمقدمة : ١٧١.

(٤) انظر الجاحظ المحاسن والأضداد ١١٤، والشعراني في الطبقات الكبرى ج١ ٥٢، ٤٢، وعين العلم وزين الحلم ج٢ ٢٩٧، وقوت القلوب ج١ ٢٤٩ والأربعين للغزالي٢١٦.

obeikandi.com

المختلفة، وأيدي الفقراء وأرباب الحاجات في عوز شديد إليه، كما أن به تطيب الخواطر والقلوب في المناسبات الدينية المأذون بها، ومن أجل هذا كان الرسول ﷺ يملك في أحايين كثيرة ويتصدق به، ونصح كثيرًا من المسلمين ألا يخرجوا عن كل أموالهم، ونفع مال عثمان المسلمين في جيش العسرة وامتدح النبي مال أبي بكر لثمرته على الدعوة.

أما أنصار الزهد مع التجرد فإنهم يدركون بلا شك منافع المال للأمة وللفرد، ولا يغيب عنهم أما الفقراء غبطوا الأغنياء على التصدق بالمال وما يجره عليهم من ثواب حتى قالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور؛ ولكنهم يخافون غوائل المال وآفاته فيؤثرون الصيانة في التجرد، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل فردا أموالاً أرسلها لهما عمر بن الخطاب(١).

كما تجرد أبو الدرداء وابن عمر، وابن عمرو، وغيرهم ممن فضلوا القلة على الكثرة، والتجرد على الملكية حبًا للسلامة، واستعانة بالتخفيف على اجتياز العقبة الكئود حسبما حدد أبو ذر وأبو الدرداء(٢).

وخشي الضحاك بن مزاحم (١٠٥هـ) أن يجمع مالاً حتى لا يقع تحت قوله سبحانه: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[التكاثر: ١-٢]، فتجردا خوفًا من لهو الكثرة.

كما تجرد الأحنف بن قيس، والخليل بن أحمد العروضي النحوي (١٧٠هـ) وداود الطائي(٣) فرارًا من الحرص الذي ينشأ غالبًا من المال، أو بعبارة أخرى ما

(١) صفة الصفوة ج١: ١٤٣، ١٩٦.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج٣: ٨٩ والعقد الفريد ج٣: ٣٠٨.
(٣) أبو عمرو القرطبي: بهجة المجالس ج١: ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦.

دام الحرص طبعي في الإنسان يشب معه في هرمه، ويتعلق بالمال والعمر، وما دام هو ذئبًا يفسد دين الإنسان كما حدثنا رسول الله(١) فإنه يُعدَّل وتقوم النفس معه بالتجرد في نظر الزهاد السابقين، وتقويمه يعني إبقاء القدر الذي ينفع(٢) مع كسر سورته وهياجه؛ حتى لا يفسد على النفس صفوها وحتى لا يحيلها إلى حيوانية لا تشبع، ونهمة لا تردع، فالزهاد إذًا يحولون الحرص من الفاني إلى الباقي، ويعدلونه إلى الخير الدائم، والنعيم السرمدي ويسمون به ولا يكبتونه.

وكذلك يفعلون في الأمل الذي حدثنا عنه رسول الله بأنه يظل شابًا في قلب الكبير، وأنه يطول دومًا مع الشاب والهرم(٣)، فيرون أن الأمل في الدنيا وفي مطامعها مزعج كالحرص، ويسبب للنفس قلقًا واضطرابًا لما قد لا تحققه من آمالها؛ خصوصًا إذا ما بذل صاحبها جهدًا وعملاً ثم أخفق في أمله المنشود فإن الأثر النفسي يكون عميقًا والجرح غائرًا، وفي تغير الصروف والأقدار وعدم تحقق ما يصبو إليه الطالب تمثل عمر بن الخطاب قول الجراح بن عمرو الهمداني:

وبالغ أمر كان يأمل دونه ... ومختلج من دون ما كان يأمَلُ(٤)

ومن أجل هذا ولأن الأمل يرتبط أكثر بالمال دعا الحسن البصري (١١٠هـ) إلى الإقلال من الأمل والتقرب منه(٥)، ورأى تحويل الأمل من الدنيا وأسبابها إلى الله وعطائه، وذلك بالركون إلى التجرد والرضا بالمقسوم.

والزاهد عبد لله وحده؛ ولذا فهو حر طليق من كل ما سواه لا يحب أن

(١) التاج في الحديث ج٥: ١٦٨ عن الشيخين والترمذي.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) بهجة المجالس ج١: ١٥٢-١٥٤
(٥) نفسه.

يذل نفسه لمخلوق أو لغير؛ ولذا رأوا أن المال يولد في النفس الطمع، وإذا تولد وكثر ونما أذهب بالعقل والعلم كما قال عمر[١]، ومهما حصَّل الإنسان من مالٍ بدوافع الطمع؛ فإنه لا يحقق لنفسه الغنى الذي يتحقق مع انقطاع الطمع واليأس مما في أيدي الخلق، وبالتالي فسمة الطامع الفقر مهما كدَّس من ثروة، ولا يخلو من الذلة أبدًا حسبما أكد الخليفة الثاني أيضًا، وفي ذلك أنشد أبو العتاهية:

أطعـــت مطـــامعي فاســـتعبدتني ولـــو أني قنعـــت لكنت حرًّا[٢]

ويقول:

أذل الحرص والطمع الرقابا[٣]

وإلى هذا التحليل وتلكم الآفات جاءت أقوال عمرو بن عبيد وعبد اللـــه بن المبارك؛ تدلنا على أخطار الطمع، وتدعو إلى التجرد واليأس مما في أيدي الخلائق[٤] مستدلين بالحديث الذي أخرجه الحاكم[٥].

ويرى الزهاد أن نفض الأيدي من الأملاك يقضي على آفة الطمع في النفس وبالتالي يبقي لها عقلها وعلمها وعزها وحريتها.

ونستطيع أن نستجمع حجج المائلين إلى التجرد في أهم آثروا السلامة، وخافوا من لهو الكثرة والحساب عليها، وعلموا أن للمال آفات هي: الحرص

(١) نفسه ج١: ١٥٩-١٦٠.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.
(٥) أخـــرجه العراقي وقال صحيح الإسناد، الإحياء ج٢: ٢٣٢، نصه [اجمع اليأس مما في أيدي الناس]

والأمل والطمع والهوى فلاذوا إلى التقلل، والزهد مع الخلو صونًا للنفس، وبعدًا لها عن مواطن الزلل، رأوا أن القليل أقوى الوسائل على تطهيرها أو هو كما يقول النويري: درة تاجها وطبيب علاجها، وواضح منهاجها، ودليلها المرشد، فَرَضٌ به نفسك إذا جمحت، وسكن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجنحت[1].

وقد يبهرنا بريق حجج الفريق الأول، كما تبهرنا حجج الآخرين فلا نستطيع أن نتبين أيهما أنصع وأقوى؛ ولكننا بشيء من التروي ندرك أن كل فريق عامل نفسه بما هي عليه، فإن كانت قوية تقدر على امتلاك المال جوز لها الملكية، وقام بالتصرف الحق، وإن كانت ضعيفة يخشى صاحبها الفتن لاذ إلى التجرد حفظًا لها، فلا ضير على هؤلاء ولا على هؤلاء؛ حيث سلمت النظرتان.

وهذه هي الحكمة التي عامل الرسول صحابته عليها، وعالج نفوسهم بها؛ حيث أمر فريقًا أنَّ يحفظ عليه نصف المال كالدحداح أو ثلثه. ودعا لأبي هريرة بزيادة المال والولد وُسُرَّ من نشاط عبد الرحمن بن عوف، بينما نراه يوافق أبا الدرداء على تجرده، ويرفض مرارًا أن يدعو لثعلبة بالملك فلما ألح عليه دعا الرسول فكان من تغير نفس ثعلبة ودينه ما كان.

(جـ) وسواء اعتنق البعض الزهد عن ملك، أو تمسك الآخرون بالتجرد فإنهم جميعًا اتفقوا على قدر محدود يجب على الزاهد تحصيلـه من الدنيا، وينحصر في الضرورات اللازمة لقوام البدن، وحفظ النفس ودفع المهلكات؛ كي يتمكن العابد من البقاء والعبادة، ويصون بها دينه وجسمه ويصل بها رحمه[2] على حد تعبير سعيد بن المسيب (٩٣-٩٥هـ) وهي بهذا الاعتبار من صميم العبادات؛ لأنه ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه، وحكمه

---

(١) النويري: نهاية الأرب ج٥: ٢٣٠.

(٢) الشعراني الطبقات الكبرى ج١: ٢٦.

حكمه[1]، والاشتغال بها لا يُخرج الزاهد عن كونه يحيا في طاعة وقرب.

ولم يترك الزهاد تقدير الضرورات وتفضيلها لكل سالك خشية التوسع فيها، وإنما حددها أبو حازم الأعرج (١٤٢هـ) بالأدنى مما يكفي[2]، وفصَّلها سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) قائلاً: أربعة ليس عليك في واحدة منهن حساب: سد الجوعة، وبرد العطشة، وستر العورة، والاستكنان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[طه:١١٨-١١٩]

وأضاف المكي والغزالي وطاش كبرى زاده المنكح للعصمة، لورود ذلك في الحديث الذي ساقه الرسول ﷺ ردًّا على سؤال عمر: أي المال نتخذ؟ فقال النبي: «**لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة تعين أحدكم على دينه**»[3]، واعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص من له امرأة يأوي إليها ومسكن يقطنه من الأغنياء.

وهذا التحديد الوارد في الكتاب والسنة والذي أخذ به الزهاد يخرج الضرورات أو ما لابد منه عن إطار حب الدنيا، وعن الشهوات السبع المذمومة التي حذرت منها الآية[4] من سورة آل عمران ويدخلها ضمن النصيب الذي أباحته الآية: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[القصص:٧٧].

على أننا لابد أن نعي أنّ أهل التجرد وقفوا في الكسب عند هذا الحد من الضرورة، وأن أرباب الزهد مع الملك كسبوا فوق حاجاتهم ثم أبقوا ما يكفيهم

---

(١) عين العلم وزين الحلم ج٢: ٣٠٤.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٢: ٣٦٠.

(٣) مسلم ج٥: ٨٣٠.

(٤) والآية هي ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾[آل عمران:١٤]

ويسد مطالبهم الدنيا، وتصدقوا أو أنفقوا في وجوه النفع بما بقي.

(د) وأنبه إلى حقيقة في غاية من الأهمية لم يغفل عنها الزهاد مفادها أن الدنيا باعتبار المخلوقات الكائنة فيها من سماوات، ومن شمس وقمر وكواكب، وأرض وما تحمل من جبال وأنهار وبحار ونبات وأشجار وحيوان وطيور وإنسان لا يمكن أن تكون محل ذم في نظر أي عاقل؛ لأن اللـــه مدح هذه الكائنات وجعلها آثارًا دالة على قدرته، وهي تهدي المتأملين والناظرين إلى وحدانية ذاته.

وكثيرًا ما ذكر الحق في جانب خلقها حسن تقديره في إيجادها وإبداعه لها، وإتقان صنعها، وأنه أحسن الخالقين وما خلقها إلا بالحق، والشواهد الثابتة تفوق الحصر في هذا المجال، ولا تخفى على من لـــه إلمام بقراءة القرآن بل الباحثين المدققين مما نستغني معه عن ذكر الأمثلة لجلائها ووضوحها، وإذًا فالدنيا من تلك الحيثية الذاتية الصادرة عن القوي القادر لا يجوز أن يتناولها الذم أو اللعن أو التهوين من شأنها، وهي لا تقبل إلا المدح، ولا تخضع للتقدير البشري بالاستهجان أو التحقير.

وإنما يجب أن يُعلم أن احتمال الذم أو المدح عندما يساق في القرآن أو الحديث، أو على لسان أي من البشر فإنما ينصرف إلى نوع الصلة بين الإنسان وهذه الكائنات أو بينه وبين الله، فإن أحسن العلاقتين قلنا عن الأثر البادي على الإنسان والذي خلفه حسن العلاقة إنه محمود، وإلا فقد حبط عملـــه وساء سبيلـــه بقطع النظر عن الطرف الثاني في العلاقة وهو الكائنات، فإنها هي هي على ما خلقت عليه إبداعًا وإتقانًا وجمالاً، والقصور من الكائن البشري الذي لم يحسن الاستفادة منها، ولم يسلك طريقًا صحيحًا للانتفاع بها.

وعلاوة على ذلك فإن اللـــه حق كامل بذاته لا ينشأ عنه الفساد، فلم يبق إذًا بعد هذا إلا أن يكون تصور لعلة والذم نشأ من عمل الإنسان فقط.

وكما أن الدنيا لا تذم لذاتها، ولا لما فيها من كائنات فإنها لا تذم باعتبارها محلاً للعمل الصالح، ولكونها مكانًا وزمانًا لفعل الخير والقربات، ولما كان الإنسان يجهل دقة ما ينبغي أن تكون عليه الصلات بينه وبين غيره من الموجودات، وبينه وبين ربه فإن اللـــه أنـــزل الشرائع؛ لبيانها وتفصيلها.

وختمها بالرسالة الكاملة على يد رسول اللـــه ﷺ، فإن اتبعها الإنسان، وقام بأوامرها واجتنب نواهيها، وأقام العدل، واتصف بالفضائل، وكانت رغباته قصدًا حمدت دنياه، لما وقع فيها من أعمال على وجه شرعي، وإن انحرف الإنسان عن الصراط، وعن التزام الشرع، وأسرف في مطالب نفسه وشهواتها، ذمت أفعالـــه وآثاره، وبذا يكون المدح لذات الدنيا أمرًا عامًا لازمًا، ويكون للمؤمنين الصادقين أمرًا نسبيًّا يرجع إلى الفعل والغاية، والذم مقصور على فساد النسبة والصلة والفعل للإنسان فقط.

وتطبيقًا لما قلناه فإننا نرى عمر يدعو: اللهم لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه(١)، ويقول: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقوامًا ينتقون لي أحسن الحديث كما تنتقى أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت(٢).

فقد أفصح في النصين عن المتعة بالزينة الدنيوية مع الرجاء في صرفها إلى وجهها الشرعي، كما بين أنه أحب الدنيا للسير في سبيلـــه والسجود لله،

---

(١) القرطبي: ٣٩٧٠.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج٣: ٩٣.

وصحبة الأخيار.

وأيضًا أعلن معاذ بن جبل أنه ما أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر[1].

وأدق تعبير عن تلك الحقيقة التي نحن بصددها ما جاء على لسان الإمام علي في وصفها؛ حيث ذكر أنها دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها[2] وكيف لا ؟! وهي مسجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه فمن ذا يذمها وهي كذلك، ومن يلومها على المباغتة وهي تنذر سكانها بالرحيل والانتقال ساعة بعد ساعة وحدثًا بعد حدث[3].

وما آسى محمد بن واسع (١٢٠هـ) من الدنيا إلا على ثلاث: بلغة من عيش ليس لأحد عَلَيَّ فيها منة، ولا للـــه عَلَيّ فيها تبعة، وصلاة في جمع ألفي شهودها ويدخر لي أجرها، وأخ إذا ما اعوججت قوّمَني[4].

فما ذم الزهاد من الصحابة وتابعيهم ومن تلاهم الدنيا بكل ما فيها، وإنما أحبوها؛ لكونها مكان العلم والعمل والتزود للآخرة، ومن ذمها فقد انصب الذم على عمل الإنسان وسلوكه، وإن جاء التعبير موجهًا إلى الدنيا فهو من باب استعمال المحل باسم الحال والمكان باسم المتمكن.

ولصحة تلك النظرة ندرك تشييد القرآن بالمخلوقات كما قلنا ونراه يحدثنا

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ج٢: ٣٠٩.

(٢) ارجع إلى العقد الفريد ومروج الذهب للمسعودي (ترجمة الإمام علي)

(٣) نفس المرجع السابق

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين: ج٣: ٩٦.

عن مضاعفة الأعمال الصالحة، ويخبرنا الحق أنه يحب أصحابها من أرباب الصبر والإحسان والتقوى، بينما يصرف الذم إلى الأعمال فيقول ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [آل عمران:٢٤] ﴿ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٦٦] ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[الأنعام:٢٠]، وفسر الطبري والقرطبي قولـــه سبحانه وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو بأن العبد الذي يقضي الدنيا في لذة ونعيم دون العمل الأخروي كأنه في لعب ولهو[١]، لا أن الكائنات الدنيوية عبث ولهو في ذاتها جل الحق أن تكون أفعالـــه كذلك، ومن هنا يقول النبي ﷺ:«**لا تسبوا الدنيا فإنها نعم مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير وينجو من الشر**» وإذا قال في حديث آخر: «**ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللـــه وما والاه وعالم أو متعلم**» فيجب صرف الاستثناء على الاتصال، وأن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ويكونا معًا بمعنى العمل الذي أشار إليه الرسول في المستثنى، وصرح به من ذكر وعلم وتعلم، وبذا سلمت نظرة الزهاد، واتضحت تلك الحقيقة التي يلزم الالتفات إليها جيدًا خصوصًا إذا ما علمنا أن ذم الدنيا كثيرًا ما يرد على لسان عامة البشر وخواصهم وزهادهم والمقبلين عليها، فعلى الجميع أن يدركوا إلى من يتوجه الذم؟

(هـــ) وبعد أن وضح لدينا أن الزهد الإسلامي قام بدافع ديني هبَّ على النفوس الطيبة من الكتاب والسنة، ووجهها إلى اللــــه وجهة جعلها تؤثر رضاه، وتفضل الحياة الآخرة على الفانية، وقد ساعد على قيامه عوامل اجتماعية وسياسية نشأت أصلاً من ظروف المجتمع الإسلامي، وتولدت من داخله.

فإنه يتأكد لدينا ولدى المنصفين من الباحثين عدم صدق كُلِّ زَعْمٍ يخالف هذا، ويبطل أولاً ادعاء لك بأن الزهد الإسلامي نابع من ميل العرب الطبيعي إلى العزلة؛ لأن العرب كانت لهم صلات بالأمم المجاورة، وكانت مكة تعج بالترف

---

(١) الطبري ج١١: ٣٢١، ٣٣٠ والقرطبي ٢٤١١.

والنوادي، وللمدينة علاقات باليهود والشام وهما البلدان اللذان نشأ على أرضهما الزهد الإسلامي.

ويتهافت ثانيًا إرجاع ألفرد فون كريمر وجولد سيهر الزهد إلى التأثير المسيحي[1]؛ لأن الزهد الإسلامي بأصوله التي جاء بها الإسلام، وألوانه المختلفة من خوف وحب واجتهاد في العبادة يختلف عن زهد المسيحية في أساليبها الكهنوتية التي توجب العزلة وتحرم النكاح، بينما الزاهد المسلم حر طليق يعمل ويكسب وينكح، وليس له لباس معين قد فرض عليه، وهو محارب في ساحة القتال، ومع كلٍ فيبدو زاهدًا عابدًا متبتلاً يعرف بليله والناس نائمون، وبخشوعه والناس يختالون، وهو حليم حكيم سكين حزين[2].

ولا نجد من شروط وأساليب وقواعد ورسوم يفرضها الإسلام على الزاهد كما هو الحال في المسيحية، فلدعوة الدين الإسلامي إلى الزهد صراحة، ولاختلافه عما جاء في المسيحية بطل القول بأن الزهد في الإسلام ناشئ من التأثر بالزهد المسيحي.

ومن ناحية ثالثة فإن رأي هارتمان القائل بأنه هندي في نزعته وأساليبه[3] أشد تهافتًا؛ لكون الزهد في الإسلام قام وتأسس ولم تتوطد بعد علاقة العرب بالهنود، ولم يتعرفوا على علومهم تعرفًا يوحي بالتأثر، ويختلف الزهد الإسلامي عن الهندي في الأسلوب إذ يخضع زهدنا في أصوله للكتاب والسنة، وفي طريقة الشعائر التي يؤديها الزاهد إلى الشرع، على عكس الزهد الهندي والرياضة الهندية

---

(١) انظر نيكلسون في التصوف الإسلامي وتاريخه، المقدمة، ترجمة الدكتور أبي العلا عفيفي.

(٢) صفة الصفوة ج١: ١٦٢.

(٣) ارجع إلى نيكلسون في التصوف الإسلامي وتاريخه، المقدمة

فإنما يخضعان لقواعد عرفية عقلية، وعلاوة على هذا فإن الغاية من وراء الزهد الإسلامي إرضاء الحق والفوز في الآخرة بالجنة،وليس للهندي غاية إلا تعذيب البدن والتخلص منه بالتجويع والحرمان.

ونود في ختام هذه الفقرة أن نوضح أنه لا ينبغي الاعتماد كثيرًا على آراء المستشرقين لاتسامها بالقصور وضيق الفهم، ولأن نيكلسون نفسه أعلن أن محاولاتهم كانت في البداية فجة لعدم وجود المصادر تحت أيديهم[(١)]، وحتى بعد ما تمهدت وسائل البحث لم يعمدوا إلى دراسة الحياة الروحية دراسة شاملة، بل اقتصرت على الاهتمام بشخصية معينة أو موضوع خاص، ثم عمموا حكم الجزئية على الحياة بأجمعها،

وفوق ما لهذا المنهج من قصور وإجحاف بالحقيقة؛ فإنه مال إلى اللون الفلسفي في الحركة الروحية، وهو لون لا يصح الحكم به على جميع الأذواق الروحية، ولا على الاتجاه السني لأرباب السلوك الصادق؛ لعلهم لو عدلوا عن الجزء إلى الكل وعن الشخصيات الصوفية الفلسفية كابن عربي وابن الفارض والجيلي، وعن الموضوعات ذات الطابع العقلي كوحدة الوجود إلى شخصيات ذات طابع معتدل؛ لغيروا من أحكامهم على غرار ما فعل آسين بلاسيوس الذي درس الإمام الغزالي، وخرج من دراسته بأن الزهد وليد عوامل إسلامية صرفة[(٢)]؛ لأنه ليس هناك دين مادي بحت؛ حتى يستعير من آخر روحانيته.

---

(١) نفسه.

(٢) نفس المرجع السابق.

obeikandl.com